# الحديث ذو شجون

للدكتور زكى مبارك

موجة صوفية تثيرها رحلة الموسيقار محمد عبد الوهاب إلى سنتريس — بين القناطر الخيرية وسدة الهندية — خطاب ضائع — ثمرة شهية من ثمار المطابع

## موجة صوفية

فى عصرية الاثنين « ٢٢/٧/١٩٤٠ » توجّه جماعة من الأصفياء إلى سنتريس ، وفيهم المسيو دى كومنين والمسيو جوزيه كانيرى والدكتور ابراهاميان والمسيو بولادربنى والموسيقار محمد عبد الوهاب ومربٍّ من كرائم الفرنسيات

ولم تكن تلك القافلة تحتاج إلى دليل[1] فقد شرّفت سنتريس بزياراتها مرات كثيرة ، ولا سيما مدام دى كومنين التى تأنس كل الأنس بزيارة سنتريس ، والتى تُعَدُّ زيارتها لدارى من مواسم الفرح عند أبنائى

إنما يحتاج إلى الدليل ذلك الموسيقارُ السابح فى لُجج الأحلام محمد عبد الوهاب ، وكذلك أُتيحت الفرصة لأن يترفق فيدعونى لمرافقته فى طريقنا إلى سنتريس

وماذا أستفيد من مرافقة عبد الوهاب ؟

وهل يُفيق هذا الحالم حتى يعرف رفيقه فى الطريق ؟

ابتدأ صاحبى فى المرحلة الأولى ، فسأل عن منازل الكتّاب المصريين وعن مبلغ تأثيرهم فى مصر والشرق ، وما كدنا ننتهى من الكلام عن طه حسين والزيات والعقاد وتوفيق الحكيم حتى أسلم خياله لأحلام أوابد لا يَقْتَنِصُها غير القلب الذى راضه الحب على التمرُّس بملاحقة أبكار المعانى . ومحمد عبد الوهاب قنّاص أحلام وألباب ، وإن كان أرقّ من الزهر المطلول

ونظرتُ إليه فى غيبوبته الروحية فرأيته يُنغنغ بأجراس صوتية لا تُبين عن لفظ مُعيّن أو غرض محدود

وفى لمحة من لمحات الوجد تمثّلتْ لى شفتان ورديتان

(١) لم يصب أبو على القالى فى تخصيص « القافلة » بالراجلة من سفر . وأكثر اللغويين على أن القافلة هى الرفقة ، ويقال للمبتدئة بالسفر قافلة تفاؤلا لها بالرجوع

لو سبّح لله بهما مسبّحٌ لكان فيهما غَناءٌ عن تسبيح كل ما حوَى الملكوت من أرواح وأشباح

أيصير عبد الوهاب إلى مثل هذا الحُسن الفاتن كلما نقله الخيال إلى عالم الروح ؟

ثم انتبه بغتة ، وقد وخزته نظراتى فقال : أتزور سنتريس فى كل أسبوع ؟

فقلت : وما الذى يهمك من ذلك ؟

فأجاب : إن هذا إن صح قد يفسّر نزعتك الصوفية ، فما شعرتُ بمثل هذه الأقباس الروحية إلا فى هذا الطريق الذى يصل بالأفئدة إلى سنتريس

وما كاد يتمّ هذه الجملة حتى هوَى إلى الغيبوبة من جديد ، وحتى عُدتُ إلى التأمل فى أسارير ذلك الوجه الذى خلق ليكون مَصدَر هداية ومبعَث فُتُون

وبعد لحظات كانت أقصر من ومضة القلب بالتشوف إلى موعد غرام وصلنا إلى القناطر الخيرية ، ثم وقفنا عند قنطرة الرّيّاح المنوفى لننتظر سيارات الأصفياء قبل أن نُنفذّ المسير إلى سنتريس .

وهنالك وجدنا على غير موعد جماعة من الشبان الفنانين يترنمون بأغاريد عبد الوهاب ، وهم ينتظرون وفود القمر لمصافحة النيل ؟

ثم وصل الأصدقاء الفرنسيون فطربوا لذلك المنظر الجذاب ، وسرّهم أن يكون فى مصر فنّان يرى طلائع فنه فى مكان يتوجه إليه على غير ميعاد

ودخلنا سنتريس والشمس تجنح للغروب والناس يرجعون إلى دورهم وفى أيديهم مقاود المال الناطق ، وتلك طلائع نعيم تكون أوفر ما تكون فى سنتريس : فأخصبُ أقاليم مصر هو إقليم المنوفية ، وأخصب مراكز المنوفية هو مركز أشمون ، وأخصب البلاد فى مركز أشمون هو سنتريس ، وأخصب بقاع سنتريس هو ما ورثته عن أبى وجدى ، وأجل دار فى سنتريس هى دار شاعر سنتريس

فإن ضاق بعض الناس صدراً بهذا الازدهاء ، فليذكر أنى تحدثت عن الريف وجمال الريف قبل أن تُخلَق وزارة الشؤون الاجتماعية بأعوام طوال . يضاف إلى ذلك أن بلدى أجمل البلاد حقّا وصدقاً ، وهو الشاهد على أن مصر موطن الخيرات والثمرات ومهد الأفئدة والعقول . ولو قلت : إن بلدى يفوق جميع البلاد

من الوجهة العلمية لكنت أصدق الصادقين

ثم جلسنا نتجاذب أطراف الأحاديث مع الأهل والأصدقاء ، وقد ذاع في أرجاء البلد أن عبد الوهاب حضر ومعه عوده الحنّان فأقبلوا يتسابقون لتزويد أفئدتهم بأطايب البوا كير من أغاريد الخلود

ثم وقع ما لم يكن في الحسبان : فقد قيل إن في سنتريس مغنين يغنّون أصوات عبد الوهاب بأطيب وأوقع مما يغنيها عبد الوهاب

وتنادى أولئك المغنّون ليُباروا مطرب الأمراء والملوك ، وليروضوه على الاقتناع بأن التواضع خُلُقٌ جميل ، فانسحب من الميدان قبل انتهاء السهرة ليرجع إلى القاهرة بحجة أن عنده موعداً في منتصف الليل !

وعند باب الحديقة سأل عبد الوهاب عن العود ليكون رفيقه في الإياب ، ثم سارت به السيارة وهو يترنم بقول أحد الشعراء :

تنظُر الساعةَ من حين لحين ليت شعري ما الذي يستعجلُكْ
إن هذا الوصل أحلامُ سنينْ فاتق الحب ودَع ما يَشغلُكْ

وانصرف جمهور المعجبين بالموسيقار عبد الوهاب وبقيتُ مع الضيوف الأعزاء نتحدث عن الآداب والفنون ، ونسمع مداعبات من كان في السهرة من الجنّيات

ومضينا نواجه النيل وقد طلع القمر وطاب النسيم فرأينا طوائف من أدباء سنتريس يَسمُرون هناك كما كنت أسمُر مع أصفيائي قبل أن يصنع الدهر بقلبي ما صنع ، وقبل أن أُحرَم من قضاء ليالي الصيف في سنتريس ، فما ذقت طعما للحياة الهادئة منذ قضت الأيام بألا أزور سنتريس إلا كما يزور طيف الخيال

ثم هتف هاتفٌ بأن الليل قد انتصف وآن أوان الرحيل عن سنتريس

وفي القناطر الخيرية وقفنا مرة ثانية نشهد صراع الأمواج في قنطرة الرياح المنوفي ، فأخذتُ المسيو كارى من يده ، واقتربت به من معركة تلك الأمواج

ثم وَثب القلب وهو يسأل : أين الموعد ، موعد فلانة ، الموعد الذي عقدته فوق « سَدّة المنديه » منذ أكثر من عامين ؟

فأجبتُ : تلك يا قلبي مواعيد البنان المخضوب !

وتلفتُّ إلى المسيو كارى وأنا أقول : ألا يكون النوم في ضيافة هذه الأمواج الصواخب أطيب من النوم في الغُرف المغلقة النوافذ ؟

فأجاب : ذلك نعيمٌ خاصٌّ بأهل الشرق

فقلت : ومن أجل هذا النعيم يوصي بعض الفلاسفة بأن تكون مدافنهم في ثنايا الأمواج

ثم رجعنا إلى القاهرة لنأنس بالعيش الرتيب من جديد

فإن سألتموني : أين كنا ؟

فأنا أجيب : كنا في رحلة صوفية ، وكان معنا عقل دي كومنين وبلاغة كارى وعُذوبة عبد الوهاب ، وكانت معنا أشياء ، فلا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تزدكم أسفاً على الحرمان من أطايب الوجود ... وهل كانت تلك الأشياء إلا القلوب الأواهل بأرواح الصفاء ؟

## خطاب ضائع

كان صديقنا الأستاذ صادق عنبر — طيب الله ثراه ! — قد نشر في مجلة « النهضة النسائية » سنة ١٩٢٧ خطابات غرامية قال إنه وجدها مُلقاة في الطريق ، وصحّ عندي يومئذ أنه ابتدع تلك الخطابات ، فكتبتُ إليه من باريس أهنئه على ذلك البِدع الطريف ، فأجاب بأنه لم يبتدع تلك الخطابات ، وإنما وجدها مصادفةً في شارع الدواوين وهو ذاهب إلى جريدة الأهرام ، ولم أصدّقه فيما ادعاه فتعقبتُه في جريدة البلاغ بمقال لاذع بدّد ما كان بيني وبينه من وداد

ثم تشاء الأقدار أن تصحح رأيي في ذلك الصديق المظلوم فقد وجدت أنا أيضاً خطاباً ضائعاً ، وجدته في شارع فؤاد وأنا ذاهب للسَّمَر مع الأستاذ « وحيد بك الأيوبي » في قهوة السلام بميدان إبراهيم ، وأطلعتُ عليه جماعة من الفضلاء الذين صادفتهم هناك

وإلى القارئ فقرات من ذلك الخطاب الضائع ، ستّر الله كاتبه وهداه ! :

« تعاتبين ؟ تعاتبين ؟ وما الموجب للعتاب وقد سدّ قلبٌ عن قلب ، وزهد روح في روح ؟ !

ومن تعاتبين ، يا شقية ، وقد انتهى عهد العتاب ، ولم يبق من الذكريات غير أطلال ؟

لا أراك الآن إلا حجراً أصم أبكم ، لا يسمع ولا يتكلم ، وإن كنتِ تحسنين زُخرفَ القول حين تكتبين إليّ من حين إلى حين ...

وتقترحين أن أزورك فى مدينة ... فهل تظنين أنى أطرب لزيارة مدائن الأموات ؟

تلك غمرة من غمرات الكرب عانيتها حين توهمتك إنسانة لها وعى وإحساس ، ثم لطف الله فأفقت ، وما كنت أحسبنى أفيق

كان غرامى نزوة من نزوات الطيش ، وقد عقلت ، والحمد لله على نعمة العقل !

أمثلُكِ يُزارُ بوحى من القلب ، وأنتِ رسمٌ من الرسوم الهوامد ، وقد انتهى عهد البكاء على الرسوم والطلول ؟

ما أبكى عليك ، يا شقية ، وإنما أبكى على النعيم الذى ذهب منذ اليوم الذى انزاحت فيه الغشاوة عن قلبى

كنت توهمت أنى عشقت ، وكانت الدنيا لا تسعنى كلما خطر فى البال أنى أملك قلب امرأة لها فى دولة الحسن تاريخ

ثم انجابت ظلمات الغواية فرأيتك مخلوقة من خزف ، مخلوقة غبية بليدة حرمتها الأقدار نعمة الفهم لسرائر الأرواح والقلوب

خرجتُ من هواكِ كما دخلتُ ، فما أمدّنى هواكِ بقصيدة رشيقة ولا مقال بليغ . والأديب لا يعشق ليقال إنه عشق ، وإنما يعشق الأديب ليطلع على الآفاق المجهولة من ضمائر الوجود . وأنت أنت ، أنت الأنثى الغبية البليدة التى لا ينتفع الأديب من صحبتها بشىء ، إلا أن يصير اسمه إعلاناً عن جاهلها المظنون ، وأنت والله جميلة ، ولكن جمالك لا يزيد عن جمال التماثيل !

إنما أبكى على نفسى ، فقد كنت أحسبنى أهلاً لغرام أقوى وأعنف من الغرام الذى عانيت ، ثم عرفت مع الأسف الموجع أنى شغلت قلبى بإنسانة ضعيفة لا تقدر على نقل القلب من مكان إلى مكان . فمتى تزحزح من مكانك يا قلبى؟ ومتى تعرف أن الهدى ليس أكرم عنصراً من الضلال ؟

لا تكتبى إلى بعد اليوم ، يا شقية ، فقلبك أصغر من قلبى ، ولم تكونى إلا طفلة نضجت قبل الأوان فتوهمتْ أنها قادرة على مساورة الرجال »

تلك فقرات من ذلك الخطاب الضائع ، الخطاب الذى وجدته فى شارع فؤاد

فهل رأيتم أسخف من كاتب هذا الخطاب ؟

الدنيا فى حرب وشقاء وبلاء ، فكيف يجوز أن يكون فيها من يعشق ويلتاع ؟

وفى قهوة بالميرا بمصر الجديدة صادفت الدكتور مشرّفة بك عميد كلية العلوم فعرضت عليه هذا الخطاب على أنه نموذج من السفاهه والحمق فابتسم ، وقال : العواطف من القُوى الأساسية فى حياة الإنسان ، ولا بُدّ لتلك القوى من غذاء . واستطرد فحدثنى أنه طرب حين رجع إلى معاهد الطفولة يدمياط ، يوم كان يتقرب إلى الله بتقبيل ضريح الشيخ مظلوم !

العواطف تحتاج إلى غذاء كما تحتاج العقول ؟

هذه فلسفة لم أسمع بها من قبل

فإن صحت هذه الفلسفة فهى سندٌ لكاتب الخطاب الضائع، الخطاب الذى وجدته فى شارع فؤاد

الدنيا فى حرب ، فلا تصدّقوا الدكتور مشرّفة ، وإن كان عميد كلية العلوم ، واقضوا أوقاتكم كلها فى متابعة أخبار الحرب بين الإنجليز والألمان ، فأخبار الحرب هى زاد العواطف والعقول فى هذه الأيام العجاف !

## ثمرة شهية من ثمار المطابع

اليوم عرفت أن الأستاذ محمود بك تيمور وأخاه المرحوم محمد بك تيمور ورثا فنّ القَصَص عن أبيهما العظيم أحمد باشا تيمور

أقول هذا وقد فرغت من قراءة كتاب نفيس اسمه « أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر » تحدث فيه تيمور باشا عن جماعة من الشعراء والعلماء والأعيان بأسلوب هو القَصَص الحق ، أو هو أحسنُ القَصَص ، إذا صح الاستثناس بعبارة القرآن المجيد

كتابٌ كله أقاصيص ، ولكنه حقائق ، وله جاذبية تجعله فوق القَصَص المطرّز بأنفاس الخيال